

البيان والتبيين في تلون زعماء الإخوان المسلمين

ياسين تملالي

"الأخبار"، بيروت 21 سبتمبر 2012



(خلال تظاهرة ضد الفيلم المسيء في تونس هذا الأسبوع (زبير سويسبي - رويترز)

وحدّث عن زعماء الإخوان، عاتواً الذلّ والهوان من حكام الطغيان، قُتلوا وسُجنوا وتفرّقوا في البلدان، وهاهم اليوم ذوي هيبة وسلطان: أبدلوا بالأسر القصر ورفعوا رايات النصر، يحكمون المغرب وتونس ومصر. لنا أن نقول لهم بعض حقائقهم إن نسوها ويذكرهم ببعض موافقهم وإن أنكروها، ونحن إن لم نفعل ذلك ماضياً فليلاً يقال إننا نظاهر الحاكم على المحكوم والجلاد على المعذب المظلوم و نتذرع "بمحرابة الظلامية" لدعم النظام "المتنور" المزعوم.

لنبداً بما يزعمون من أنهم آباء المعارضة وما كانت معارضتهم إلا عارضة لانشغال شيوخهم بشتم "الكفرة البهائية" ونقد "الشيعية الرافضة". ألم يكونوا في مصر يجتمعون بأرباب الجهاز الأمني لاقتسام الدوائر الانتخابية مع أساطين "الحزب الوطني"؟ وفي تونس، ألم يهملوا لانقلاب بن علي في ذلك اليوم الأخير، يوم السابع من نوفمبر، قبل أن يفهموا ألا فرق بين "نوفمبر" و"ديسمبر"؟ كانوا يقودون الملايين ويشاركون في المظاهرات الديمقراطية بالعشرة والعشرين، وما كان حضورهم إيها حبا للديمقراطيين وإنما لتجميل صورتهم لدى "الغربيين" من "ملاحة" و"مشركين".

سيردون مذكّرين بقديم مآسيهم وتشريد مناضليهم وتعذيب معتقليهم. التحية لمن دافع منهم صادقاً عن الديمقراطية ولم يجعلها مطية لإقامة دولة تكفر بالحرية، والعرفان لهذه الأقلية التي قاست القهر والتهجير والقدح والتشهير لحماية حق

خصومها في التعبير. أما جلُّهم فلم يجاهدْ لغير ما يُعدهُ قويمَ "الشرع"، أي لإقامة دولة "الحظر" و"المنع" وفرض الحجاب والنقاب والبرقع، فلم يقف إلي جانب اليساريين وهم يضطهدون لأن الدفاع عنهم حرام ومصادقتهم الموت الزؤام وإن حتمت صروف الدهر التظاهر معهم بالوئام. من غير زعماء الإخوان ساعد "الرئيس المؤمن" أنور السادات على قمع الاشتراكيين في الجامعات قبل أن تدور عليهم الدائرة فيقتسموا مع أعدائهم المعتقلات؟ من غيرهم ظاهر الدكتاتورية التونسية على "الرفاق" قبل أن يبوء مسعى "أسلمة النظام" بالإخفاق ويشردوا بدورهم في الآفاق؟

يشتمون اليسار على بكرة أبيه بعد أن أصبحوا وزراء ورؤساء. أتراهم نسوا أن كثيرا من "اليساريين" لم يرفضوا الدفاع عنهم بزعم كونهم "وهابيين" و"عملاء" وأنهم نصروا المظلوم أيا كان وفكوا أسر معتقلي الرأي في كل مكان لا فرق في ذلك بين الاشتراكيين والإخوان؟ أين كان عصام العريان ينشر مقالاته قبل أن يكتشف "تشرذم اليسار"؟ في "الأخبار" وهل فتحوا جرائدهم لحممة الهمامي وسامح نجيب وشكر عبد الغفار؟ ألم يبح في مصر صوت كمال خليل مطالبا بإطلاق سراح من سجن منهم؟ ومن في تونس غير أستاذة الجيل راضية النصراري ذات عنهم؟ من أجاز الهاربين منهم في ذلك الزمان وعرفهم بمنظمات "حقوق الإنسان"؟ اليسار أم السلفيون وغيرهم من "إخوة الإيمان"؟

ولما جاء يوم الفصل وأرادت الشعوب أن تحسم بالجدِّ الهزل بحثت عنهم فلم تثر لهم في المعركة من نصل. في مصر، في الخامس والعشرين من يناير، لم تجد إلا شباب الإخوان الثائر، ممن لا يخشون أن تدور عليهم الدوائر. أما هم، فكعادتهم حذروا ولم يغامروا وحسبوا ولم يقامروا وأسروا ولم يجاهروا. ولم يجاروا قواعدهم إلا بعد أن انفضح أمرهم، وحتى وهم يسايرون طوفان الثورة كانوا يخشون أن يغرقهم. في ميدان التحرير أمروا بـ "فك الاعتصام" وشرعوا في مفاوضة "الأزلام" لما قد يكون في ذلك من "رفع لراية الإسلام"، ولولا حزم الثائرين - وكثير منهم أبناء "الجماعة" ممن سئموا "السمع والطاعة" - لما قامت علي حسني مبارك الساعة ولواصلوا معه "الحوار" بعد أن سالت من الدماء أنهار وكشفت عن ضعف نظامه الأستار. لولا حزم الثائرين - ومنهم شباب الإسلاميين، ممن رفضوا التدجين وساروا على الدرب غير خائفين - لاكتفوا بالجلوس إلى عمر سليمان لـ "إعادة النظر في نتائج انتخابات البرلمان" عوض الإجهاز على نمرود الزمان (ولما كانوا في ما هم فيه من عز الآن).

وقبيل علي حذرهم خلال الانتفاضة المصرية حذرهم خلال الانتفاضة التونسية. لم يتحركوا إلا بعد أن خرج من قمقمه المارد الغاضب وعمت أرجاء البلاد النقمة على الظالم الغاصب ولولا ذلك لقالوا "الله غالب!". لم يركبوا قطار الثورة إلا بعد أن سار ليخطفوا ثمرة الانتصار ممن جابهوا الرصاص بصدور عار. حين كان القميص يحصد شباب سيدي بوزيد كان خيارهم المشاهدة خوفا، كالعادة، من أن يتهموا بـ "المزايدة". وكان خيار اليسار المساندة، بالمشاركة في المظاهرات ودعمها بأموال النقابات والجمعيات وإسماع صوتها في الجرائد والفضائيات.

ثم جاءت الانتخابات ففازوا بها باسم "الحل هو الإسلام" (وبتوزيع العدس والأرز على المعوزين والأرامل والأيتام)، وعادت حليلة إلى عاداتها القديمة من هوس

بالجلال والحرام وشتتم "للعلمانيين" في وسائل الإعلام. استمر قتل الثوار ولم ينجدوهم وتواصل سجن الأحرار فلم يسندوهم واكتفوا بكلام عابث عن "الطرف الثالث"، فقد كان كل همهم أن يصبحوا للجنرالات أصدقاء ويتقوا شرهم بالمدح والإطراء إلى أن يمكن لهم فيصبحوا أمراء.

وما أن تمكنوا حتى امتلأوا غرورا فتبين من أنيابهم ما كان مستورا وجبر من عنجهيتهم ما كان مكسورا. أحجموا عن "التغيير" وماطلوا في كسر قيد الثائر الأسير واقتسموا السلطة مع الفلول "فمنا أمير ومنكم أمير". نسوا الشهداء الأبرار - ومنهم شهداؤهم - وفضلوا رفقة الأشرار - ومنهم جلاذوهم - وساروا في موكب أمريكا وأحبابها بالطبلة والمزمارة. لم يروا حرجا في مصاحبة قياديي "التجمع" و"الحزب الوطني" بعد أن كانوا ينعيتون حكمهم بالفاجر "الوثني" وأدوا فروض الولاء لولية نعمتهم، السعودية، فكانت أول بلد زاره محمد مرسي وحمادي الجبالي طمعا في دعمها المالي، رغم ما يعرفان عن ملكيتها الاستبدادية وتكبيها مواطنيها المهاجرين بقيود العبودية (ناهيك عن سعيها إلى الإفراج عن الشردمة المباركية وإيوائها العصابة البنعلية-الطرابلسية). وأعطوا هيلاري كلينتون العهد بأن "التغيير" لن يضر بمصالح الرأسمال ولن يمس الاستثمارات وأسواق المال وأن العلاقات مع إسرائيل ستبقى على ما هي عليه من حسن حال. واكتشف وزراؤهم أن قانون الطوارئ "مذكور في القرآن" وما كان مبارك وبن علي بهذه الفتوى يحلمان، وسيكتشفون فيه، لا محالة، مشروعية "إعادة النظر في حل البرلمان"، فرداء الدين فضفاض يفي بكل ما لهم من أغراض، بما فيها تشويه الخصوم والتعرض للأغراض.

ما أن تمكنوا حتى تنكروا للفقراء فليس الفقراء سوى كتلة صماء و"عامّة دهماء" تشتري ذممهم والأصوات في أيام الانتخابات. أدانوا في مصر "المظاهرات الفئوية" وفي تونس أطلقوا النار على الشبيبة البوزيدية بعد أن أدركت زيف وعودهم الوردية. واصلوا إغداق المال العام على خزائن اللئام وإعطاءه غير مستحقه من أرباب العمل - وبعضهم قتلة أبنائهم في "موقعة الجمل" - فاطمان الناهب على ما نهب وفرح السالب بما سلب. وبدل أن يحسنوا التدبير فيأخذوا من المترف ليعطوا الفقير أحكموا على المعدمين الأغلال وتوعدوا العمال بأن تعود عليهم إضراباتهم بالوبال، وبكوا مع الباكين على "عجلة الإنتاج" ونسوا وعدهم بمساواة سكان الأكوخ والأبراج في "استيفاء الخراج". وبدل أن يبحثوا عن الأموال عند أصحاب الحل والعقد حزموا أمرهم على طلب القروض من صندوق النقد، وقال بعضهم - محرّجا - إن "الضرورات تبيح المحظورات" وقال بعضهم الآخر - غير محرّج - إن هذه القروض ليس ربا من المحرمات، فأين "الاقتصاد الإسلامي" وما يزعمون من "نظريات"؟ هذا حال زعماء الإخوان إلا من رحم ربك، فليعتبروا بمصير من سبقهم إلى القصر قبل أن يقضى الأمر ويصبحوا طغاة هذا العصر.

ياسين تملالي

<http://www.al-akhbar.com/node/167686>